د. شاكر النابلسي *

إيران... الثورة تريد خبزاً

-1-

عندما فاز الرئيس أحمدي نجاد في انتخابات الرئاسة الأولى عام 2005، كان أهم هدف عاهد الناخبين على تحقيقه ليس التقدم بالملف النووي الإيراني إلى الأمام، وليس إرسال المزيد من الإرهابيين إلى العراق، وليس زيادة مخصصات بعض الأحزاب والميليشيات العراقية المُعيقة لعملية بناء العراق الجديد، وليس المزيد من العداء للغرب، ولكن كان الهدف الأهم لكي يحققه نجاد بعد انتخابه، هو تحسين الوضع الاقتصادي الإيراني المتدهور، في بلد غني بالثروة النفطية، وبثروات طبيعية أخرى.

ومضت أربع سنوات من ولاية نجاد الرئاسية، فوجدنا أن إيران تتراجع إلى الخلف اقتصادياً، ووجدنا أن الفقراء يزدادون فقراً، والأغنياء يزدادون غنى. ووجدنا أن معدل البطالة يرتفع، وأن الإيرانيين أصبحوا يتعاطون حشيشة الكيف وغيرها من المخدرات أكثر من الماضي، بل وحسب تقرير للأمم المتحدة، أصبحت إيران المستهلكة الأولى للمخدرات. هذا مع العلم أن الدخل القومي الإيراني قد ازداد زيادة كبيرة خلال الأعوام الأربعة الماضية نتيجة لارتفاع أسعار البترول والغاز، ولكن هذه الزيادة الكبيرة في الدخل القومي الإيراني، ذهبت منحاً وهبات، وثمن أسلحة لـ"حزب الله" الذي يقال إنه يكلّف إيران سنوياً أكثر من نصف مليار دولار، إضافة إلى حركة حماس التي تكلّف إيران سنوياً حوالي نصف مليار آخر، إضافة إلى ما تصرفه إيران على "الإخوان المسلمين" في مصر والعالم العربي. وما تصرفه إيران على عناصر الإرهاب المختلفة في العراق، والآن في اليمن كذلك، وتمنح الأحزاب الدينية المتطرفة هبات وعطايا مالية كبيرة. ولا ننسى أن إيران تدفع سنوياً للخزينة السورية، ثمن الحلف الاستراتيجي بينهما، وهو مبلغ يتعدى الثلاثة مليارات دولار.

-2-

إن الشعب الإيراني والمعارضة الإيرانية خصوصاً، تعلم كل هذه الأرقام علم اليقين. وهي تُعبِّر عن معارضتها ورفضها لأغراض صرف هذه الأموال الطائلة، التي عملت على إساءة سمعة إيران في العالم العربي والإسلامي، وكذلك في الغرب، وصنَّفت إيران ذات يوم، بأنها واحد من أضلاع "مثلث الشر"، ويمثل الضلع الثاني سورية المتحالفة استراتيجياً مع إيران، والثالث كوريا الشمالية، التي وصلت الآن إلى حافة الهاوية مع الغرب ككل، من جراء تجاربها النووية المستمرة وإطلاقها للصواريخ الخطيرة.

فهل يستطيع الشعب الإيراني خصوصاً المعارضة، تغيير السياسة الإيرانية الداخلية والخارجية، بعد نجاح أحمدي نجاد بأربعة وعشرين مليون صوت، وموافقة المرشد العام علي خامنئي ورضاه عن هذه النتيجة، وتهديده للمعارضة والمظاهرات التي احتجت على هذه النتيجة، وصدور اتهامات بتزوير الانتخابات؟

لقد بنت الثورة الخمينية خلال الثلاثين سنة الماضية، من أجل حماية نفسها، جيشاً قوياً، وحرساً ثورياً شديد البأس، وأجهزة مخابرات مختلفة، وإعلاماً نافذاً، ونظاما تعليميا مؤدلجاً أدلجة خمينيّة وليست إسلامية. وأصبح موقع السلطة في إيران الآن أقوى مما كان عليه في عصر "الشاهنشاهية"، الذي ثارت عليه الخمينية، وأصبح الشعب الإيراني في سجن كبير نتيجة ملاحقة الإصلاحيين، وإخفاء وجودهم وصوتهم، وهو ما دفع معظم زعماء العالم الغربي اليوم إلى المناداة بإعطاء المعارضة حقها في التظاهر، والمطالبة بحقوق المُهمَّشين.

ومن هنا يبدو حظ نجاح الثورة الشعبية الخضراء الآن في إيران قليلاً، لاسيما أن نصف مليون رجل دين في إيران الآن، يفضلون الصمت على الانحياز إلى جانب السلطة، أو جانب المعارضة. وقد نقلت لنا الأخبار أن وكالة أنباء "بورنا" الإيرانية، التابعة للمنظمة الوطنية للشبيبة، انتقدت عدداً من كبار رجال الدين، لعدم تهنئتهم الرئيس أحمدي نجاد على فوزه بولاية ثانية في الانتخابات. وقالت الوكالة بحسب ما نقلت عنها صحيفة "سرماية": "ماذا يعني هذا الصمت؟ هل مشاركة 85 في المئة من الناخبين في الانتخابات حدث صغير (لم يكن كافياً) لدفع هؤلاء السادة إلى الكلام للترحيب بهذا الإقبال؟".

فخلافاً للانتخابات السابقة، لم يهنئ عدد من كبار رجال الدين الرئيس أحمدي نجاد على الفوز الذي حققه بالأمس.

-3-

هل هي ثورة الخبز في إيران؟

والخبز الذي نعنيه اليوم هو الحرية، التي يتمتع بها بقية عباد الله في الغرب من هذه الكرة الأرضية.

وهل هناك من جديد يحصل في إيران في هذه الأيام؟

إن ما يحصل في إيران اليوم، لا يشبه التمرد الذي حصل في صيف 1999، حين قاتل آلاف الطلاب ضد قوات الأمن. ففي ذلك الوقت كان الطلاب وحدهم في الساحات العامة الإيرانية، يتظاهرون، ويهتفون ضد الدكتاتورية الدينية الإيرانية، التي مضى على حكمها لإيران في ذلك الوقت عقدان من الزمن، ويطالبون بالإصلاح. وقد كانت صعوبات الحياة في ذلك الوقت أسوأ مما كانت عليه قبل ثورة الخميني 1979. واليوم تزداد هذه الصعوبات حيث تشير الأرقام الرسمية، إلى أن هناك أربعة ملايين عاطل عن العمل. ولأن إيران في حاجة إلى مليون فرصة عمل جديدة سنوياً، في حين أن ما يتحقق هو من 400 إلى 500 ألف فرصة فقط. وتتراوح البطالة بين 20 و27 في المئة في أوساط الخريجين. وهناك تسعة ملايين عازب وعزباء، بينهم 5,5 ملايين من العازبات. ويعيش ثلاثة ملايين من سكان طهران في ضواحيها حياة بائسة (صحيفة "ميهن"، عدد 96، 2006). وهذا بسبب المبالغ الضخمة من ميزانية الدولة التي تُصرف على "حزب الله" وتسليحه، وعلى "حماس" وممانعتها، لكي تبقى كالشوكة في حلق السلام العربي- الإسرائيلي، وعلى عصابات الإرهاب في العراق، وعلى بعض السياسيين العراقيين وأحزابهم الدينية، وميليشياتهم.

وربما أسقطت السلطة المنافس الأكبر لنجاد، وهو مير موسوي، الذي يؤيد المبادرات الفردية والسوق الحرة، وينوي استخدام عائدات النفط من أجل تشجيع الاستثمار والقضاء على البطالة ودعم برامج التطوير، وهذا ما تعهد به نجاد في انتخابات 2005 ولم ينفذه، وأعاد التعهد به خلال انتخابات رئاسته الثانية.

أما اليوم فالشعب هو الذي يقود الانتفاضة ويستعين بالطلاب، وهذه هي المرة الأولى التي يقف فيها أناس كانوا من لحم القيادة كتفاً بكتف مع المنتفضين (هاشمي رفسنجاني مثلاً)، وقد وجد هؤلاء في الانتخابات الرئاسية، الفرصة المناسبة لكي يفجِّروا هذا الغضب وهذا الألم الذي نراه الآن على وجوه الإيرانيين داخل إيران، وفي عواصم العالم الغربي، حيث يوجد أكثر من خمسة ملايين إيراني في الشتات هرباً من الضنك الخميني، وقبله من الضنك الشاهنشاهي.

-4-

هل هناك ديمقراطية حقيقية في إيران؟

إيران كبقية دول العالم الإسلامي الآخر، لا ديمقراطية حقيقية فيها، وربما كان ذلك أحد المطالب التي يطالب بها المتظاهرون في إيران اليوم، إلى جانب مطالبتهم بالإصلاح الاقتصادي وضمان الحريات العامة.

فعلى سبيل المثال هناك أكثر من 400 شخصية تقدموا بترشيحهم للرئاسة، ولكن أربعة فقط أقرَّ ترشيحهم "مجلس المراقبين"، الذي يحق له رفض الترشيح من دون إبداء الأسباب. وحُرمت النساء من هذا الحق على الإطلاق. وهؤلاء الأربعة المتنافسون هم من أهل النظام الإيراني القائم، وليس من خارجه، أو من الناقمين عليه. وهو ما جرى في الانتخابات الرئاسية السابقة كذلك. ولولا هدف ذر الرماد في العيون الغربية والليبرالية في العالم الإسلامي والعربي- كما يقال- لتم تعيين رئيس الجمهورية تعييناً، وليس انتخاباً ناقصاً، كما يجري الآن. ولِمَ لا، فالزعيم المرشد لا يُنتخبُ بل يُعيَّن، وقائد الحرس الثوري لا يُنتخبُ بل يُعيَّن، و"مجلس المراقبين" لا يُنتخبُ بل يُعيَّن، و"مجلس الخبراء" كذلك. ورؤساء هذه المؤسسات هم من عظام رقبة النظام ومن حُماته.

* كاتب أردني

د. مأمون فندي *

هنا القاهرة!

هنا القاهرة العامرة، هنا الضاهر، وهنا أيضا الظاهرة، هنا العالم نيام، وهنا أيضا عالم البشر الساهرة، الشيء ونقيضه متراص إلى جوار بعضه، هنا اللصوص يفترشون الأرض في ورع يتمسحون بضريح الطاهرة، يلهجون مدد يا أم هاشم، يدعون للحكومة الباطنية، وقلوبهم مع الحكومة الظاهرة، هنا الظاهرة، هنا القاهرة.

لا تظنن السوء بي، فالبلد يسير بآليات السوء، فالقاهرة ليست مشتقة من القهر لا تأخذوا الأمر بظاهره، لا تقرأوا مقالي من شواشيه أو حواشيه، فهنا بلد المعز، بلد العز. هنا التراب الطاهر، هنا المسخرة والفشخرة. هنا الظاهرة، هنا القاهرة.

هنا هُزمنا فقيل لنا نكسة، وهنا انتصرنا واسترجعنا أرضنا، وقيل لنا وكسة، هنا انقلبت الموازين، هنا يسود التافه، ويهمش الرزين، هنا على الشاشات يسود الطنين، وإلى وطن ضاعت ملامحه يعذبنا الحنين، هنا يكرم النصاب، ويهان المخلصون، هنا نفتح الأبواب للكذاب ونوصده في وجه الأمين. هنا الظاهرة، هنا القاهرة.

هنا جيوش كذابي الزفة تملأ الدنيا صياحاً وصخباً، ينامون مع البغي، ويدَّعون العفة، هنا دارت الرؤوس، واندارت الدفة، هنا أناس تسير في الطرقات من دون معرفة، هنا الزعيق باسم الوطن، ممن تورطوا في الوحل وفي العفن، هنا أناس عرايا، حتى في لحظات الموت لا يجدون الكفن. هنا الظاهرة، هنا القاهرة.

هنا الكوبري هنا الأنفاق، هنا الكذب وهنا النفاق، وهنا الغلبان يقرأ طالعه في قاع الفنجان، هنا البذخ السوقي، وهنا موائد الرحمن، هنا يأكل الشيطان ويُلفظ الإنسان، هنا يبقى كل شيء ذا قيمة، عدا الإنسان. هنا ملياردير في مرسيدس، هنا غلبان، هنا حفيان، الكل متجاور، ومجاور، هنا الظاهرة، هنا القاهرة.

هنا التجريف والتحريف، هنا تجريف الأراضي الخصبة في الرؤوس وبالفؤوس، هنا تجريف وطن، هنا تفوح رائحة عطن، هنا أمور تسمم البدن. هنا يسيطر المحافظ، وهنا تُسرق "المحَافظ"، هنا يموت النقد، وهنا يُزْهر على الطرقات الحقد، هنا انفرط العقد. هنا الظاهرة، هنا القاهرة.

هنا وطن تمكنت البلطجة من صرته وبؤرته، هنا صحافة خائفة، وبضاعة تالفة، إما بلطجة بالصنج وإما بلطجة بالغنج، وادعاءات كاذبة عن "سبارتاكوس" وعن ثورة الزنج. تتعالى الصيحات بحب مصر، في الظهر وفي العصر، وذات الأصوات الفاجرة تسرق اللقمة من أفواه فاغرة، وبين وطن يباع على قارعة الطريق، مرة باسم الدين ومرة باسم الملحدين ولا الضالين، ومرة ضد التطبيع من أجل التطويع، وسوس الخراب بدأ يدب في بلد كانت عامرة. هنا الظاهرة، هنا القاهرة.

هنا سائل، هنا مسؤول، هنا مشكلة السائل تبحث عن حلول، يجيبه المسؤول في الظلمات على طريقة "ماما كريمة" في الإعلانات، ليست لدينا حلول، لكن الحل في المحلول. هنا الظاهرة، هنا القاهرة.

هنا الخوف تمكن من الجوف، هنا لا يسود النوع هنا يسود الكم يا ولد العم، هنا فساد يزكم الأنوف، لكن الناس تدَّعي أنها فقدت حاسة الشم، هنا انسكب الحبر وانكسر القلم، هنا مات الأمل وزاد الألم. هنا الظاهرة، هنا القاهرة.

هنا نفدي كل شيء بالروح والدم، من الأبطال إلى الأوهام إلى الغنم، هنا الوطنية الزائفة نغم، هنا يكذب الناس طوال اليوم والنهار على الشاشات وعلى صفحات الجرائد، لا كسوف ولا ندم، هنا حالة من العدم، هنا تسود النفوس الخربة، وتهرب القلوب العامرة. هنا الظاهرة، هنا القاهرة.

هنا يسير الناس خيالات كالنيام، لا قعود ولا قيام، هنا نرى رغد العيش في المنام، هنا الزحام، هنا تمشي وتمشي، من أول القُطر إلى آخره فلا ترى إلا قفراً، في الفكرة والخضرة، هنا تنتهي النضرة، هنا يمكنك أن تودع العالم، وهنا تقول على الدنيا السلام. هنا الظاهرة، هنا القاهرة.

هنا ضاع الأمل، هنا فقدنا قيمة العمل، هنا تُرص الجمل في مقالات وديباجات ولا تقول شيئاً سوى التسبيح بحمد مَن لا يجب أن يحمد، هنا هاجر المواطن من دولة بدت له وكأنها لا ناقة له فيها ولا جمل. هنا الأمر اكتمل. هنا أصبح الخروج كما فعل موسى عملاً ثورياً، فالبقاء في هذا الجو أصاب الناس بالملل. هنا الظاهرة، هنا القاهرة.

هذا مقال كتبته قبل أول سفر لي خارج مصر عام 1985 إلى واشنطن لأول مرة، في لحظة وددت لو أنساها، لكنها بقيت معي، مقال كتبته منذ أكثر من ربع قرن، رأيت أنه يصلح لهذه الأيام أيضاً. يومها كنت في الثالثة والعشرين من عمري، حائراً في أمري، لم أحاول تجديده إلا قليلاً، هكذا كنت وهكذا كنا، ومشيت في الزمان والمكان، وبقيت القاهرة كما هي، القاهرة، الباطن من الأمر والظاهرة.

* مدير برنامج الشرق الأوسط بالمركز الدولي للدراسات السياسية والاستراتيجية IISS

بلال خبيز *

في منطق الممانعة السورية السليم

نظام البعث الحاكم الذي أرساه الرئيس الراحل حافظ الأسد صبور كجمل. الممانعة في أصلها وتعريفها مثلما أرساها هذا النظام، وحذا النظام الإيراني حذوه، تفترض أن الصمود في مواجهة الأخطار يعني أن الشعب والمجتمع الذين يرزحان تحت نير التدخلات الخارجية والقمع السلطوي المباشر قادران على البقاء من دون مقومات البقاء. هذا يفرض علينا أن نمدح صبر الشعب السوري والشعب الإيراني استطراداً. أما التساؤل عن أي نوع من أنواع البقاء قد يستقر عليه حال الشعبين، فهذا أمر لا يدخل في اعتبار قادة الممانعة. إلا حين تصرح تسيبي ليفني، كمثل تصريحها الشهير حول غزة: "غزة لا تعاني أزمة إنسانية، ولا سبب يوجب التحرك في هذا الإطار". على وقع مثل هذا التصريح، يقفز حديث مستويات البقاء إلى الواجهة. ذلك أن الشعب السوري أو الفلسطيني، بحسب منطق الممانعين، ليس في حاجة إلى أي شيء، ويعيش أفضل أوقاته. وهذا يقع في خانة الصبر والصمود. لكن حديث ليفني أو غيرها يستجلب ردوداً موقتة تعيد النقاش إلى منبعه الأصلي: "الشعب الفلسطيني يعاني، بطالة وتفشي أمراض سارية ومهجورة، وأزمة سكن خانقة. وهذا ينذر بكارثة وشيكة". لكن مثل هذا الحديث عن أوضاع الناس وأحوال عيشها لا يقفز إلى العلن إلا رداً على العدو الذي يمعن في الضغط والحصار على الشعب.

والحال، الشعب الممانع له صفتان متناقضتان، بحسب منطق الممانعين: هو شعب يعيش بألف خير في القِلة والعوز وأمام عصف العواصف، ولا تنال منه النوائب ولا الحدثان. وهو شعب يعاني أنواع المشكلات كافة المعيشية والصحية والثقافية تحت ضغط الاحتلال أو الحصار. وتبرز الصفة هذه أو تلك بحسب مسار الأمور والمتغيرات في الأوضاع.

سوريا اليوم، يقال، أثبتت أنها بلد وازن وله مصالحه التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار. وتأسيساً على هذا المعطى لم يعد ثمة من حديث عن المشكلات التي يعانيها الشعب السوري تحت الحصار. اليوم الشعب السوري بألف خير، ولا ينقصه من متاع الدنيا الزائلة إلا تكحيل بواصره بمشهد انتصار النظام على أعدائه وخصومه. لكن الشعب السوري لا يكون بخير حين يكون التدخل الأجنبي فاضحاً والحصار معلناً. وهذا لا يتعلق بطبيعة الحال بتغيرات ملحوظة في أوضاع الشعب السوري على المستويات كافة. لقد أصبح الشعب السوري بألف خير، مع أن الاقتصاد مازال على حاله من التردي، والحريات الأساسية مازالت معدومة تقريباً، والمستقبل الاجتماعي مازال غامضاً ومشوشاً، والأهم من ذلك كله، مازال الأعداء والخصوم بألف خير أيضاً. ولا يجدر بعاقل أن يسأل ما الذي تغير حتى أصبح البشر والاستبشار سيّدي الموقف السياسي؟ فالعاقل هو من لا يفهم تحولات الناس والعباد، وتغيرات الأمزجة الاجتماعية. والعاقل طبعاً لا يستطيع أن يفهم معنى الجريمة التي حوكم عليها ميشال كيلو الذي تم الإفراج عنه أخيراً: "إضعاف الشعور القومي". ذلك أن العاقل يحسب الأمور وفق ميزان دقيق: كم طناً من الدقيق مازال موجوداً في خزين المطاحن والأفران؟ ومتى يجب أن نقلق لاحتمال فقدان الخبز من الأسواق؟ أما أن يكون الشعب بخير بخبز ومن دون خبز في الأسواق، وبوجود فرص عمل ومن دون وجودها، وبحرية ومن دونها، فهذا أمر لا يجدر بالعقلاء من الناس أن يفكروا في حل ألغازه.

هنيئاً للنظام السوري بعودته نظاماً فاعلاً في المنطقة. هنيئاً لنا أيضاً بشعور هذا النظام أنه أقوى من العواصف. إنما أيضاً، نود أن نسأل، ما الذي تغير في الوضع؟ والجواب واضح: لقد خفَّت وتيرة التوتير في لبنان، ولأن الخطاب السياسي. وهذا على ما يقول رئيس المجلس النيابي اللبناني، نبيه بري، من بعض مفاعيل نجاة سوريا من الحصار، ونجاحها في فك طوق العزلة الدولية والعربية. والحال، أليس من المنطقي أن يسأل المرء سؤالاً: ما الذي استوجب كل هذا التوتير في لبنان، ما دام المطلوب فقط: فك طوق العزلة عن النظام؟ ثم والأهم من هذا كله: ما هي الإضافة المميزة التي حققتها السياسة السورية على تحسين موقعها وموقع حلفائها في مواجهة أعدائها؟ مازال نتنياهو يحكم رئيساً للحكومة الإسرائيلية حتى إشعار آخر، ومازال الشعب الفلسطيني يعيش تحت الاحتلال، والأهم سورياً، مازالت مزارع شبعا محتلة ولم تنجح الممانعة في تحريرها، بل ربما نجحت في إهمالها ونسيانها.

* كاتب لبناني

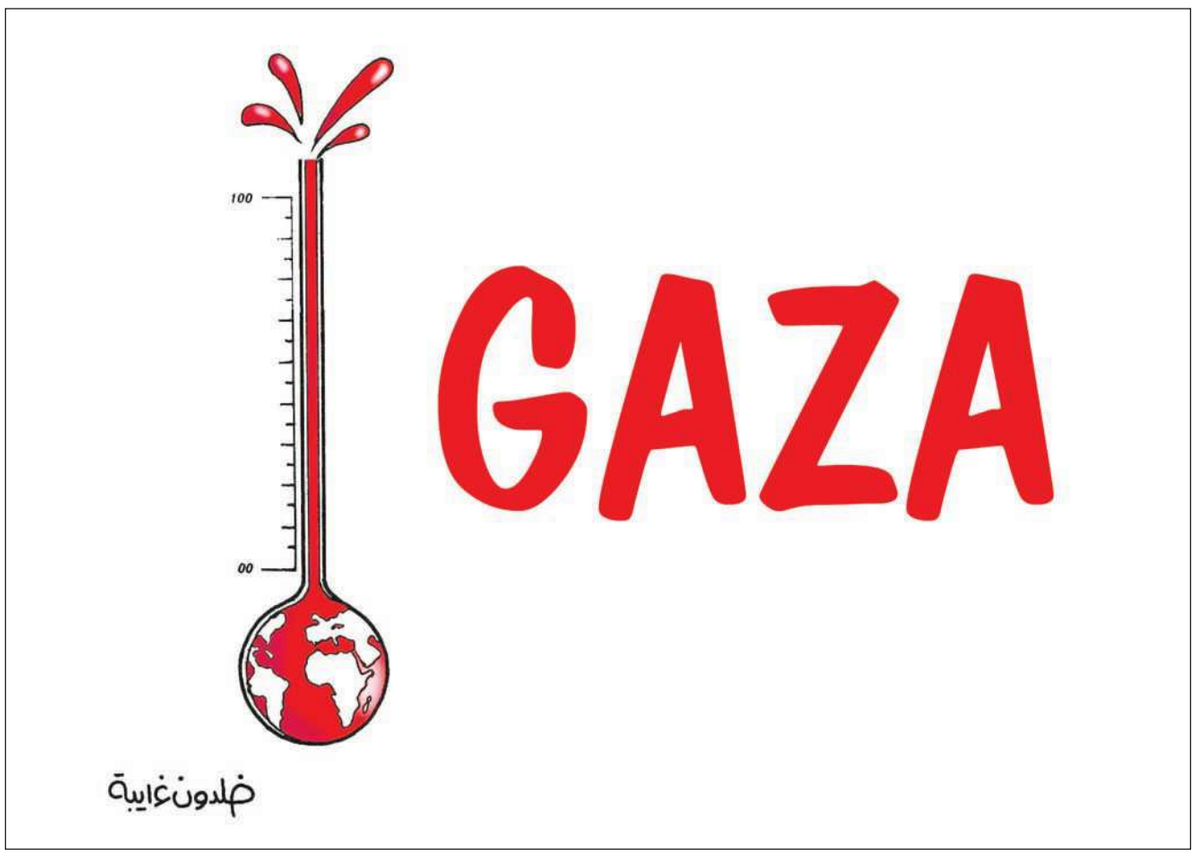

علي بلوط *

جَعْجَعَة في دمشق

"أسمع جعجعة... ولا أرى طحيناً"، قول عربي.

***

بين دمشق والرياض والقاهرة وواشنطن جرى رسم خريطة لبنان السياسية الجديدة. غير أن العبرة في التنفيذ.

زرت دمشق في الأسبوع الماضي بحثاً عن الجديد في الموقف السوري بالنسبة إلى الملفات السياسية الكبرى ذات الشأن المهم، خصوصاً ملف الدور السوري في لبنان. في العاصمة السورية وجدت ارتياحاً لم يكن موجوداً منذ فترة طويلة. مبعث هذا الارتياح أن سورية لم تعد تلهث وراء العواصم العربية والدولية لشرح وجهة نظرها، بل إن هذه العواصم الآن تركض وراءها لإقناعها بإعطائها الدور في المساهمة في إمكان إيجاد الحلول. أي أن دمشق اليوم أحدثت شرطة سير خاصة لتأمين حسن وصول الوفود التي تزورها بكثافة، خصوصاً من الغرب الدولي، بينما كانت لسنتين مضتا تلهث وراء دعوة مسؤول عربي أو دولي من الدرجة الثالثة أو الرابعة لزيارتها والاطلاع على وجهة نظرها.

وجدت دمشق اليوم مطمئنة تنام ملء جفونها، بينما جافاها النوم الهادئ في السنوات الأخيرة، خصوصاً بعد احتلال العراق في عام 2003، فالمخاوف التي كانت تقلق منامها زال معظمها. "والأعداء" العرب والأجانب الذين كانوا يخططون ويتوهمون بالخلاص من النظام باتوا اليوم يعملون، على الأقل ظاهرياً، لإدخال الطمأنينة إلى النفوس القلقة بأن ما كان يحدث في الأمس قد زال اليوم، وأن السعي هو "لتثبيت دعائم النظام وحمايته" من الأخطار الخارجية. فما الذي حدث حتى انقلب "العدو" إلى "صديق"، وما العوامل التي دفعت هؤلاء الأعداء إلى تغيير المسار والمصير؟

أحد كبار المسؤولين السوريين، من هؤلاء الذين يشاركون في صناعة القرار السوري وراء الستار ولا يحق لهم التصريح العلني بالشأن السياسي، قال لي مختصراً كل هذه التساؤلات: لقد ثبت للجميع أن سورية أصبحت مادة ضرورية وليست ضارة في صياغة السلام في المنطقة. لقد حاولوا الاتيان بسورية أخرى، لكنهم فشلوا وعادوا أخيراً إلى صوابهم، حيث وجدوا أن أبواب قلوبنا وعقولنا مفتوحة لأنواع الحوارات المختلفة.

كلام سياسي دعائي لا زبد فيه. لكن ما عوامل هذا التحول الدراماتيكي تجاه سورية؟ يرد المسؤول: ليس الحب طبعاً. فالدول لا تنتمي إلى التكوين البشري، وتعريف الحب عندها يختلف عن تعريف أبناء البشر. فالدول، منذ قيام النظام البشري، تعتمد المصالح بديلاً عن العواطف. وموقع القلب في جسمها هو في جيبها، وهو المكان الذي يجب التركيز عليه في حالتي السلم والحرب، لأنه يمثل "نقطة المقتل" في الجسم السياسي أو نقطة الجذب. منطق فلسفي معقول جداً ومفهوم جداً ولا يمثل اختراعاً جديداً لمادة البارود. لكن أن تقوله سورية بمثل هذه القناعة فهنا الاختراع الجديد لأنه يدل على أن دمشق وضعت جانباً لغة القلب والعواطف وبدأت تتحدث باللغة التي يفهمها القرن الواحد والعشرون. صار بين سورية والعالم لغة مشتركة، وهي تمثل خطوة أولى في التحاور سواء وصل هذا التحاور إلى التصالح أو إلى التصادم. تلك هي المرحلة التي تعيشها سورية اليوم: تحاور عقلاني بلغة مفهومة بعيدة عن مفردات الشعراء وعن التشنج اللاعقلاني. وشعار سورية اليوم: ما تأخذه بالعنف الثوري قد تستطيع أن تأخذ أكثر منه بالمنطق المسالم البعيد عن التهديد والوعيد.

دمشق لا تريد أن تسمع أو تناقش موقفها الحيادي الذي اتخذته خلال الانتخابات النيابية اللبنانية، والذي أدى إلى خسارة المعارضة الأكثرية المطلوبة (زحلة والبقاع الغربي)... مردّ ذلك إلى الشعور بالذنب، لا لأن وقوفها على الحياد قد أنتج ما أنتج، بل لأنها لم تطلع حلفاءها اللبنانيين على ما تضمره إلا في اللحظات الأخيرة، مما اعتبره بعض المعارضين الكبار بمنزلة "طعنة في الظهر". وعندما فوتحت دمشق بالموضوع بعد الانتخابات قالت ما معناه: للضرورة أحكام.

فلقد وجدنا أنفسنا بين خيارين؛ إما أن "نحصّن" سورية، وإما أن "نخسر" الانتخابات في زحلة. وبالطبع أنتم توافقون على أن تحصين سورية يأتي في أولوية الأولويات. وهكذا أُقفِل ملف العتاب واللوم وفُتح ملف آخر هو عدم تكرار هذه التجربة القاسية عند تشكيل حكومة الانتخابات الأولى. "وكما طُلِبَ منكم الوقوف على الحياد في الانتخابات لأسباب سياسية جوهرية تتعلق بتحصين سورية، نطلب منكم اليوم الاستمرار في موقف الحياد في تشكيل الحكومة". تلك خلاصة الرسالة الشفهية التي نقلها رسول يمثل المعارضة إلى دمشق في أعقاب فوز الموالاة.

وهذا يعني أن المعارضة تريد أن تبتعد عن الاصطدام مع الرغبات السورية، وتبعد عنها وجع الضغط الدمشقي إذا تعارضت مصالحها مع مطامح المعارضة، فهي لا تريد أن تقول "لا" لسورية في أي شأن من الشؤون. لكن على دمشق أن تفهم وتتفهم ضرورة تحصين المعارضة كما تفهمت هي- أي المعارضة- منطق تحصين دمشق على حساب مصلحة المعارضة. وتلك كانت إشارة واضحة بأن المعارضة لن تقبل أي نوع من أنواع الضغط السوري في مجال تشكيل الحكومة. ووعدت دمشق بذلك وسارعت إلى تنفيذه. ولعل رفض الرئيس بشار الأسد للمطلب السعودي بأن تكمل دمشق دورها في الضغط على المعارضة لتسهيل مهمة سعد الحريري بتشكيل أول حكومة له... لعل هذا الرفض هو بداية تنفيذ وعدها الجديد للمعارضة.

فقد دُقِل على لسان بشار كلام قاله للمبعوث السعودي الأمير عبدالعزيز ابن خادم الحرمين عبدالله ما يعني: "ان المعارضة منفتحة، فلماذا لا تتحدثون إليها لترتيب الأمور. إن سورية أعلنت عدم تدخلها بالشأن اللبناني خلال السنتين الماضيتين، وليس باستطاعتها أن تتصرف عكس ذلك اليوم". كلام قد يكون للاستهلاك السياسي، وربما يخفي وراءه مطالب سورية من السعودية، كي لا نقول "ثمناً ما". ذلك لأن سورية تتصرف كدولة لها مصالح عليا ولو على حساب أصدقائها. فعلت ذلك بالأمس القريب، أو ستفعل ذلك في القادم من الأيام. فما هو "ثمن" قبولها بالضغط على حلفائها لتسهيل مهمة الرئيس المكلف سعد الحريري؟ واستطراداً هل تستطيع السعودية أن تدفع الثمن السوري المطلوب؟ هذا ما ستكشفه الاتصالات السريعة والحثيثة بين دمشق والرياض في الأيام القادمة. غير أن هناك رؤية جرى التفاهم على خطوطها العريضة بين البلدين ولم يتم، إلى حين كتابة هذه الأسطر، الاتفاق على تفاصيلها. لقد جرى التفاهم على "تقسيم" لبنان إلى ثلاثة ملفات: أمنية وسياسية واقتصادية. تتولى سورية الملف الأمني في لبنان نظراً إلى ارتباطه الوثيق بالأمن القومي السوري، على أن يتم ذلك بالتفاهم مع الرياض وتكون الكلمة الأخيرة للرؤية الدمشقية. مقابل ذلك تتولى السعودية الملف الاقتصادي اللبناني بجميع نواحيه على أن تُعطى دمشق حق المشورة. والكلمة الأخيرة في هذا المجال للمملكة. أما الملف السياسي فيتمّ تقاسمه بالتساوي بين البلدين نظراً إلى الارتباط العضوي بين السياسة والأمن.

إن المحادثات السرية المكثفة بين دمشق والرياض تجري في إطار "خطة الطريق" هذه. غير أن اللافت أن مصر حسني مبارك بدأت تغرد خارج السرب السعودي، فهي- أي مصر- تشجع الموالاة على تشكيل حكومة تحت شعار تطبيق الديمقراطية بشكلها الكامل. أي أن الموالاة تحكم والمعارضة تعارض. والذين يحسنون الظن يقولون إن الرئيس حسني مبارك وجد نفسه شبه معزول عن التعاطي بالأزمة اللبنانية. ومصر لا تقبل أن تكون على الهامش في أي موضوع عربي. لذلك رفعت الصوت بضرورة "حماية" ديمقراطية لبنان، وكأنها تقول لحليفها السعودي إن القاهرة مازالت موجودة وفاعلة على الأرض العربية. وهناك من يعتبر أن نقل "وكالة أنباء الشرق الأوسط" المصرية الرسمية خبر عقد لقاء قمة ثلاثي في دمشق يضم السعودية وسورية ولبنان قبل تأكيده رسمياً من المعنيين هو من قبيل صرخة مصرية مكبوتة، هدفها الانضمام إلى هذه القمة في حال عقدها.

وهكذا دخل لبنان مجال التجاذب والصراعات العربية، مما يزيد الوضع الداخلي اللبناني تعقيداً، وينقل الشأن الداخلي من السيادة اللبنانية المطلوبة إلى طاولة المساومات العربية. وهذا لا يبشر بالخير ولا يدفع إلى التفاؤل بحدّه الأدنى.

أما شعارات "السيادة والحرية والاستقلال" التي ملأت الأرض والسماء وحيطان الشوارع اللبنانية طوال فترة الانتخابات فقد زال مفعولها ومعناها بعد انقضاء 24 ساعة على ظهور نتيجة الانتخابات. لذلك اقترح على السادة النواب الجدد والقدامى وضع مشروع قانون معجل مكرر بمادة وحيدة بسحب هذه الشعارات من التداول بسرعة تحت طائلة العقوبة القصوى لكل مَن يستخدمها، لأن التلاعب بعقول المواطنين واللعب بغرائزهم بشكل خديعة؛ والخديعة هي مادة جرمية في كل القوانين الدولية، خصوصاً إذا كانت موجهة نحو شعب بأكمله، يضاف إليها مادة جرمية أخرى أكثر بشاعة من الأولى، وهي الاستهزاء بعقول المواطنين واستغفالهم.

* كاتب لبناني